

## تقدمه الحيرة اينما حل: يحيى الشيخ في معرضه الأخير هكذا سميت الأشجار

فاروق يوسف

تاريخ النشر 2007/10/21



لا يزال يحاول الرسم يحيى الشيخ، الرسام العراقي الذي كان يوماً ما الرسام الأكثر شهرة من بين أبناء جيله الستيني يسعي منذ ثلاثين سنة (وهي عمر منفاه) إلي أن يكون الآخر المختلف الذي يتشبه به وبياريه بل ويتلصص عليه. لقد كان الشيخ بالنسبة لمن عرف رسومه في ستينات القرن الماضي نموذجاً للفنان الذي لا ينسحب ببسر من التزاماته السياسية، بل أنه وبالرغم من سعيه إلي تهذيب تلك الالتزامات جمالياً كان لا يخفي ولعه المباشر في التحريض من خلال الرسم علي الفعل الثوري، في صفته نوعاً من تأكيد الوجود. كان الشيخ يوماً بطريقتة أو بأخري رساما ذا رؤية سياسية. غير أنه خرج من منافيه المتعددة قبل أن يستقر في النرويج بموعدة واحدة، تتعلق بموقفه من ذاته إنساناً وحيداً ومن الرسم في صفته فعل خلاص نقياً. بالنسبة إليه لم يعد الرسم ذلك الحيز الذي يقول بلغته ما يمكن أن يقال بلغات أخري، بل صار الرسم هو لغته، وهي لغة يستخرجها الفنان من حيز لا كثافة له ولا يمكن لأية مرأة أن تظهره. أما الرسام فقد صار ذلك الشخص الذي يتحسس مسؤوليته في أراض لم تحرث بعد. لذلك كان الشيخ هو الأكثر جرأة من بين أبناء جيله حين صار في كل مرة يحاول الرسم فيها يغلق كتابه القديم ليبدأ من جديد، رساما يلجأ إلي ما لا يعرف من التقنيات والمواد. وفي كل مرة يتغير كانت أصابعه تفصح عن شخصيته من غير أن تتعكز رسومه علي أسلوبه القديم أو

أفكاره التي استهلكتها تلك الرسوم. صارت فكرته عما يجهل هي التي تسحره وتوقع بعاطفته بل تمده بقوة من يحلم بفتح مضاد. كان ذلك الآخر الذي يسكنه يحقق له القدرة علي أن يفصح عن تغييره. وهو تغير يحقق للرسام نشوة الانفصال عن ذاته، وهو ما وجده في مادة الصوف التي اشتغل عليها لسنوات مثل حرفي استخرجته لحظة الهام من حكايات الشعوب القديمة. كانت أعماله التي حملها إلي باريس عام 2004 يوم استضافته مدينة الفنون هناك صادمة لكل من رآها. فبقدر ما كانت ميسرة من جهة النظر بقدر ما كانت معقدة من جهة المغزي. كان السؤال يومها: ما الذي يدفع برسام مكرس أسلوبيا إلي أن يبدأ من لحظة الصفر مثل حرفي لا يزال يتسلق سلم المهنة؟

## 2

يرتجل يحيى الشيخ (المولود في العمارة جنوب العراق عام 1945) خياله أيضا. بالنسبة له (وهو الذي درس الكرافيك وعاش في مختبره زمنًا طويلًا) فإن العمل هو الذي يحضر الإلهام. غير أن هناك في النفس ما لا يمكن التعبير عنه أو وصفه دائمًا. ذلك هو الشيء الذي صار الشيخ يطارده بين تحول وآخر من تحولاته الفنية. وقد يمثل ما يقدمه اليوم في معرضه الأخير الذي أقامه في مدينة تروند هايم النرويجية والذي يحمل عنوانًا لافتًا بشاعريته هو (هكذا سميت الأشجار) خلاصة لسيرة حياة تتجاذبها عاطفة عصية علي الوصف ورغبة ملحّة في النسيان. انه جسر بين ما كنته وما أنا عليه اليوم، علاقة بين ذاتين عشتها بعمق يصف الفنان معرضه الحالي. كما لو أنه يريد أن يجلي عن أسباب عودته إلي مقاطع من ذاكرته البصرية الصدا. ومع ذلك لا يمكننا سوي أن نقول أن يحيى بالرغم من كل هذه الاستعدادات البصرية لا يزال يتقدم إلي المجهول. ذلك المكان الذي كان ينظر إليه دائما بشغف العاشق.

صحيح أن في إمكان الوجد الذي يرافق عناوين لوحاته أن يحيط بنا فتتعثر به خطواتنا غير أن يحيى وهو الصانع الماهر قادر علي أن يهبنا قدرة مضافة علي استرجاع أنفاسنا حين يزج بنا بصريا في أشكال تحيرنا وتضعنا في قلب متاهة جمال، تتناسل دروبها مثل الحكايات التي لا تنتهي. علامات مضاعة هي ما تبقى من سيرة حياة هي قيد الاستفهام، يمد يحيى الشيخ إليها يده مثلما يفعل شبح، لينسبها إلي لوحاته التي يشك أنها من صنعه، ذلك لان الآخر الذي يسكنه لا يزال يسترق النظر إلي ما تفعله يده. في كل رسمة من رسوم الشيخ هناك صراع بين حساسيات تتجاذبها مصادر متناحرة: الفكرة والتقنية والأشكال، غير أن عاطفته هذه المرة تطل مثل ضيف مأخوذ بحضوره. من المؤكد أن النرويجيين سيسحرون بالمناخ الشعري الذي تنتجج به الأعمال الكرافيكية الـ (15) التي نفذت بأناقة علي ورق أسود ولكنهم لن يكتشفوا اللوعة التي تتطوي عليها. هذه الرسوم لن تبوح بأسرارها لكل من يري. فهي أشبه بالتمائم التي لا يقول مظهرها أي شيء عن المكيدة التي تسعى إلي تخطيها. رسوم هي أشبه بفكرة العبور من مكان آخر. وإن كان الرسام يحاول هذه المرة الاستغاثة بالماضي.

قبل سنة وفي تقديمه للجمهور للفنلندي كتبت أن يحيى الشيخ ضالته النسيان، غير أن يحيى هذه المرة يريد أن ينسي بطريقة الشيخ الذي يقيس المسافة التي فصلته عن الوقائع بعاطفته. وهي عاطفة ترتجل خيالها بما يؤسس لسيرة ذاتية هي مزيج من وطن قد نداعي ومناف عديدة تصنع من النسيان مادة لرجائها. سواء في معرضه الحالي أم في كل تجاربه السابقة نجح يحيى الشيخ في أن يتماهي مع الآخر المختلف الذي يسكنه ليكون دائما الرسام الذي يفاجئ، بحيث تتقدمه الدهشة والحيرة والاستفهام أينما حل.

### فاروق يوسف

شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد  
عن جريدة القدس العربي  
للمزيد من المعلومات حول يحيى الشيخ

<http://www.iraqiart.com/artists/Artists/ViewArtist.aspx?artistid=194>